

سبحان الزهور



المرء روح خفيٌ لست تنظره
 الأيمرآتو من هذه الصورِ
 ان كان ظاهره عنوان باطنه
 فهاكم عن فؤادي أصدق الخبرِ
 عبد الحميد الزهرادي

للسيد عبد الحميد افندي الزهراوي شهرة في الادب لا تقل عن شهرته في السياسة . ولئن كانت سوريا قد عرفت سياسياً ماهراً ، ومبعوثاً غيوراً على مصالحها ، فان مصر عرفت من قبل كاتباً مجيداً ، وصحافياً قديراً . على ان شواغل السياسة لم تصرفه عن الكتابة فقد طالما أنشأ المقالات الضافية ، وكتب الفصول الشائقة في جريدته «الحضارة» النراء . ولقد اغتصمنا فرصة وجوده في هذه الاثناء في مصر ، فسألناه ان يزين بعض صفحات « الزهور » بفصل يكتبه خصيصاً لها ، فتفضل بالمقال التالي ، قال :

رغبتم ، أيد الله بكم دولة العلم والأدب ، ان أضع بين زهوركم ورقة
 يمثل عليها شيء من تفكراتي ، ولو اطلعت على قلبي ، وعرفتكم كم أقدر
 الزهور حق قدرها ، وكيف أتهيب ان أضع بينها مثل هذه الورقات ،
 لما سمحت مكارمكم الأدبية ان تضوني بين مشككين من تلبية هذه الرغبة
 الشريفة ، والاحجام عنها . أما وقد قضى حظي ان تخفى عليكم حالي ، مع
 وضوحها وقوة فراستكم ، فان الاقدام رجح عندي على الاحجام ،
 وشجعتني على ذلك ان فوضى الأقلام قد تستطيع تعاريجها ان تخفي مثل
 هذه الورقات فلا تنفذ اليها عين الخذاق

ولا أكتم عنكم ان ما شغل الأفكار هذه الايام من هبوب عواصف
 السياسة من الغرب على الشرق ، ومن الشرق بعضه على بعض ، قد حال
 بيننا وبين مجالات الكتابة ؛ لأن المجال ان كان في السياسة ، فهي قاضية
 ان ليس كل ما يعلم فيها يقال ، وان كان في الادب ، فعلوم انه لا محل
 للموسيقى حين تكون المدافع قائمة بدورها على ابواب البلاد ، وان كان
 في الفلسفة ، فلها رجال لا أرى اني من طبقتهم ، ولا تسمح نفسي ان
 تحشر في زمرة الطبقة التي لا تستحق في نظر الناس الا ان تومم بالتقليد ؛
 فلأجل هذا كله وقفت طويلاً امام تكليف صديقي صاحب الزهور
 وقفة الحائر ، ثم انطلق لساني يقول : « كيف الخلاص من الزهور »

ولما قلت هذه الكلمة وجدت ضالتي ؛ فان ذهني انتقل الى موضوع
 يصح ان نسميه جليلاً . ذلك ان لاحت لي العلاقة العظمى التي بين البشر
 والازهار ، ورأيت ان هذا النوع بأجمعه غير مستغن عن الأزهار . فلما

وأيت الناس تربطهم بها هذه الرابطة العظمى ، بحيث لا ينفكون كلهم عن طلابها ، والخضوع لتجلياتها - لما رأيت هذا المرأى الغريب الذي يقلّ التنبه له ، هان عليّ عدم امكان التخلص والتخلص من أمر « الزهور » وسهل عليّ الدخول في موضوع قد يصح ان يأوي الى هذه الرياض لأنه متعلق بالزهور

العلاقة التي بيننا وبين الأزهار :

قلت ان العلاقة بيننا وبينها عظيمة والآن ازيد فأقول : هي عظيمة جداً . وهذا اداء يحتمل شرحاً كثيراً ، وأبدي أسفي على اني لم اجد من الوقت ، ومن تفرغ الفكر ما استخدمه في هذا الشرح على مقدار ما يحتمل الموضوع ، فانا اكتفي بإشارات قليلة فاني لا أخال ان للزهور قرأء من غير الاذكياء ، واولئك تكفيهم الاشارة

ان العلاقة بيننا وبين الازهار هي علاقة التربية ؛ اي اننا نحن نربّيها وهي تربينا ، وهي مساعدة في حفظ نوعنا ، ونحن مساعدون في حفظ أنواعها . ولما كان من حكمة ذي العناية ان يكون طلبنا لما نحتاج اليه من الاشياء الضرورية بسوائق طبيعية ، وضع فينا سوائق جمة متنوعة بتنوع ما نحتاج اليه ؛ واعظم هذه السوائق « حبّ الجمال » . ووضع سبحانه فيما نحتاج اليه ، ويحتاج اليها ، جواذب جمة مشوعة اعظمها « الجمال »

ففي الازهار قوى تجذبنا ، وفيها قوى تسوقنا الى محبتها . ولست ادري أ شاعرة تلك الجباب بهؤلاء المحبين ، وأثريننا لجواذب فينا تجذبنا ،

وسوائق فينا تسوقها الى ذلك ؛ نعم لا أدري هذا فأتركه لسبح خيال
بعض الفلاسفة ...
كيف ترتبنا الأزهار

اما تربية الأزهار إيانا فلي اساليب شتى ، بعضها شديد الظهور .
فمن ذلك : تربيتها أبداننا ؛ ذلك ان قسماً عظيماً من أغذيتنا يتمثل في
أهم أدواره زهراً ، ثم ينقلب حباً ، او فاكهةً ، او لباً . ولا ينبغي ان
تنسى ان الاعشاب هي الأساس في تربية أبدان جمهور الحيوانات ؛ لأن
أو اكل اللحوم منها ، انما تغذى بلحوم او اكل الاعشاب في الغالب ،
ولأنها (أعني أو اكل اللحوم) اذا وجدت في اللحوم غذاءها ، لا تجد
فيها شفاءها اذا أصابها مرض ، بل تلتهمه في الاعشاب كما ينقله
المشاهدون . واذا كانت الاعشاب هي الأساس في التغذية ، ومن الحبوب
والفواكه والألبان قسم كبير من الاغذية والادوية ، كان واضحاً معنى
تربية الازهار أبداننا

أما تربيتها لأفكارنا وعواطفنا فهذا الذي يحتاج الى الشرح ؛ ولعله
يكفي ان نقول : ان أعظم أسباب رقي الإنسان انما هو « حب الجمال »
وان أعظم حامل للواء الجمال هي هذه الازهار التي لا يستطيع أبلغ البلغاء
ان يدخل في تفاصيل بهائها وازدهارها وتشكلها بالألوان التي
يفرق بعضها عن بعض امتيازات في غاية الدقة . فكما ألف الانسان
المزيد من التمتع بجمالها وعنى تربيتها وترتيبها ازداد ذوقه سلامة ، وطبعه
لطفاً ، وروحه نشاطاً

وهناك اسلوب آخر من تربيتها ايانا يذوقه الصوفيون ، والفلاسفة
الروحيون ؛ فلا تتعرض له ههنا

كيف نربي الازهار

هذا المطلب من الموضوع ترك بعض جهاته لعلماء الزراعة ، وتأخذ
نحن بجهة واحدة منه ؛ وهي أن التقليد الذي يدخل في كل شيء قد دخل
ايضاً في تربية الأزهار التي اعتاد الناس ان يزينوا بها حدائق البيوت .
ذلك اننا رأينا اكثر الحدائق انما تحتوي على أصناف من الازهار معهودة
عند الكل في الغالب ، في حين ان الازهار التي تحتوي عليها أرض
الله الواسعة تكاد لا تحصى . وهذا التقليد قد يذكرنا بجمود اكثر
الافكار على ما عرف الاولون ، من غير تأمل ، في ذلك الذي عرفوه
خطأً او صواباً ؛ واذا انتقل الفكر من الجمود في تربية الازهار ، الى
الجمود في تربية العقول والنفوس ، يربف القلم ويستمني من الخوض فيه ؛
فليعذر القارئ اذا اراد ان لا يترك لذة الوقوف مع الزهور ، وقفة
الذاكر جميلها وجمالها ، المتعلم من حكمة ارشادات أوضاعها وحالها ؛ وقد
تذكرت الآن هذه الحكمة التي تتجلى لي كلما رأيتها تزين الرياض
والحدائق ، وهي ان تسبيح بديع الاكوان كلها يكون بالروح والجنان ،
كما يكون باللسان ، « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن
لا تفقهون تسبيحهم »

عبد الحميد الزهراوي

